آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية
السنة السابعة عشرة، العدد الأوّل، ربيع و صيف ١٤٣٥ هـ .ق، صص ١ – ١٨

رثاء الحسين (ع) في شعر عبدالعظيم الربيعي (الآبادائي)

حميد باقري دهبارز*

نصرالله شاملي**

الملخص

الشاعر الآبادائي عبدالعظيم الربيعي من طائفة شعراء رثاء الحسين (ع) وهم لايقرضون الشعر إلّا لذكرمناقب أهل البيت (ع) التزاما بما لديهم من الشعور الديني، فالبحث هذا يريد أن يُعرّف هذا الشاعر البارع ـ حياتَه وآثارَه ـ أولّا ـ وهو الذي لايعرفه إلا نزرٌ من العرب الإيرانيين ـ ويُلقي الضوء على أسلوبه في الرثاء الحسيني ثانيا. من أهم ما حصل عليه هذا البحث هو أنّ الربيعي اختار القصيدة العربية العمودية لقول الشعر خلافا للتيار التجديدي الذي عاصره كما استحسن قول الشعر والبيان عن الأفكار العابرة اللطيفة في قالب الرباعية التي تخصّصها الفرس لهذا الغرض. أما أسلوب الربيعي في القصائد فأسلوب جديد من حيث تقديم المعاني والأفكار فله دائماً بدايات ومطالع خلابة لافتة للانتباه كما له الهيكل الشعري المنسق المطبوع بطابع المقابلة والحوار ونهايات مصبوغة بصبغة الدعاء والاستشفاع هذا ونراه في الرباعيات يُبدي استدلالات شعرية (نوع من حسن التعليل) تثبت عظمة الحسين (ع) ومجده بأسلوب المقابلة.

الكلمات الرئيسة: الشعرالملتزم، الرثاء، الإمام الحسين (ع)، عبدالعظيم الربيعي.

---

* دكتوراه اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان (الكاتب المسؤول) bagheridehbarez@gmail.com

** أستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها، جامعة أصفهان

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٠، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/٢

١. المقدمة

عبد العظيم الربيعيّ شاعر معاصر من منطقة «آبادان» الإيرانية، تلمّذ على أيدي كبارِ علماءِ الشيعةِ وسرعانَ ما صار من عباقرالدين والأدب. خصّص شعره وأدبه بمدح أهل البيت (ع) ورثائهم وذكر مناقبهم، فهو من طائفة شعراء الشيعة الذين عاشوا وترعرعوا في بيئة النجف الأدبية.

يهدف هذا البحث أولاً إلى تبيان معالم أدبه وشعره الذي قلمّا عُني به الباحثون رغم ما لديه من عبقرية شعرية وجمالية أدبية، ويسعى ثانياً لو يُلقي الضوء على جوانب أدبيّة لشعره في رثاء الحسين (ع) معتمداً على ديوان شعره المختصّ بمدائح أهل البيت (ع)، الديوان الذي يحتوي على قصائد ورباعيات جلّها في رثاء الحسين (ع) وشهداء الطفّ الذين أفدوا بأنفسهم لله تعالى.

وفقاً لهذا المنطلق يتناولُ البحث معالم حياة الربيعي لكي يعرّفه للقارئ عابراً إلى التعريف المختصر على الديوان ومن ثمّ يتطرق إلى الموضوع الرئيس فهو تبيين ميزات الرثاء الحسيني في ديوانه.

اعتماداً على ما قام به الكاتب من البحث في الكتب والمجلّات فيكمن القول إنّه لايوجد بحث علمي أكادمي يتناول حياة الربيعي وشعره إلّا ما جاء به «جاسم عثمان مرغي» في كتابه *الأدب المعاصر العربي في إيران*، والموضوع من هذا المنظور جديد لم يسبق إليه أحدٌ ـ والله أعلم ـ.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

٢. الربيعي في سطور

هو عبد العظيم الربيعي شاعر إيراني من مواليد «قصبة النصار» بـ«آبادان»، ولد في اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجّة في سنة ١٣٢٣ هـ.ق وتلقّى علومه الابتدائية عند أبيه «اليشخ حسين الربيعي»؛ هاجر إلى النجف الأشرف سنة ١٣٤٢ حيث كان في التاسع عشر من عمره، (الربيعي، ١٤١٩: ١٩ – ٢٠) فتلمّذ عند كبار العلماء مثل «السيد جعفر التبريزي» و«العلامة السيد باقر الزنجاني» و ... .

ترك النجف وعاد إلى الوطن بعد أن نال إلى إجازات الاجتهاد من «الإمام السيد أبوالحسن الأصفهاني» و«العلّامة الشيخ آقا ضياء الدين العراقي» و «آية اللة السيّد أبولقاسم الخوئي» سنة ١٣٦٣ (المصدر نفسه: ٢١).

عاد الربيعي إلى آبادان واشتغل بهداية الناس وإرشادهم إلى الحق ونشر أحكام الدين كما لم يغفل لحظة عن رثاء الحسين (ع) وذكر مصائبه في قالب الشعر العربي وقدّم أشعارا في الرثاء تحترق القلوب والأفئدة عند سماعها؛ وأخيراً لبّى نداء ربّه سنة ١٣٩٩ بعد أن عاش عيش الزهد والفلاح والتزكية (مرغي، ١٤١٤: ١٩٨).

خلّف الربيعي آثار متنوّعة لنا بعضها مطبوعة وبعضها لايزال مخطوطة، أمّا المطبوعة فيمكن الإشارة أولاً إلى ديوان الربيعي وهو موضوع بحثنا هذا ويشمل على مراثي أهل البيت (ع) و خاصة الإمام الحسين (ع) في ٦١ قصيدة و ٨ موشحات و ٥٦٣ رباعيا. أما الكتاب الثاني فهو كتاب سياسة الحسين (ع) الذي كتب دفعاً لشبهات طرحها المخالفون في حياة الحسين (ع) سنة ١٣٧٨ه.ق (الربيعي، ١٣٧٨: ٣).

للربيعي كتاب آخر سعى فيه وراء دفع الشبهات المطروحة حول الإمام الرضا (ع) فهو كتاب *وفاة الرضاء* الذي يروي فيه المؤلف حياة الإمام حتى الوفاة ويزيل بعض الشبهات (الربيعي، ١٤٢٠: ٤).

له كتب أخرى من أهمّها كتاب *الفرقة الوسطي* المكتوب سنة ١٣٩٢هـ.ق، يتحدث الربيعي فيه عن الخلافات بين الإخباريين والأصوليين ويسعى إلى تقديم حلّ لهذه الخلافات (الربيعي، ١٣٩٣: ٣-٨).

كما له ديوان الربيعي باللغة الدارجة، فهو ديوان له آخر في رثاء الحسين (ع) وأهل البيت (ع) باللغة الشعبية الدارجة في العراق وخوزستان (الربيعي، ١٣٩٠: مقدمة الديوان).

للربيعي كتاب نحوي سُمي بألفية الربيعي، طبع هذا الكتاب في النجف الأغرّ في الصرف والنحو يبلغ عدد أبياته ١٣٦٩ بيتا في أوزان وقوافي متعدّدة (المصدر نفسه: ٣-٥).

وأما المخطوطة فمن أهمها الحواشي والتعليقات على كتب السطوح وكتب في اللغة و التاريخ (الربيعي، ١٤١٩: ٢٣).

٣. التعريف بالديوان

يحتوي ديوان الربيعي على مجموعة ضخمة من المراثي والمدائح في الأئمة المعصومين وخاصة الإمام علي (ع) والإمام حسين (ع) فترتيب الديوان على الشكل التالي:

ـــ المواليد؛ يبدأ الربيعي الديوان بذكر مواليد أهل البيت (ع) وتأتي قصيدة ميلاد الإمـــام علي (ع) على رأس الديوان وتتبعه قصيدة ميلاد فاطمة الزهراء وكذلك ميلاد السبطين (ع) ويختم هذا القسم بموشّحة غرّاء في ميلاد صاحب العصر والزمان المهدي (عج):

شهر ُشعبانَ عظيمٌ في الشهور ... يا إلـــهَ العـــرشِ زِدْه عُظمـــا
ليلة النصف بدا ســـرّ الإلـــه ... صاحب الأمر ختامُ الأوصياء
مشبها ميلاده جـــدّ عـــلاه ... أحمدَ الهادي ختـــام الأنبيـــاء

(المصدر نفسه: ٧١)

ـــ العلويّات؛ تأتي العلويات في القسم الثاني من الديوان والربيعي يقدّم قصائد وموشّحات جملية في مدح وصي النبيّ الإمام علي (ع):

بَـــدَريّ الخـــدّ مـــوردُه ... دُرّيّ الثغـــرِ منضّـــدُه
خمريّ الريـــقِ مُعسّـــلُه ... هو مصدر شوقيَ موردُه
هو ربّ الحسن ومُفـــرِدُه ... وقبيل العشـــق يوحّـــده

(المصدر نفسه: ٨٩)

ـــ مراثي المعصومين؛ فهذا القسم من الديوان يحتوي على قصائد في رثاء الإمام علـــي وفاطمة الزهراء والإمام الحسن والإمام الحسين والإمام الرضا (ع) ومثلاً يقـــول في رثـــاء الإمام علي بن موسى الرضا (ع):

قضى بدرُ هذا الكـــون فـــالكون ... وضجّ له بالنّوح شرقٌ ومغـــربُ
فهل علمتْ طوسٌ فللـــه درّهـــا ... بأنّ بهـــا نجـــمَ الـــنبيّ مغيّـــبُ

(المصدر نفسه: ١٢٨)

ـ الحسينيات؛ كما هو الظاهر من العنوان فهذا القسم يختص برثاء الحسين (ع) فهو ما يحتلّ قسماً كبيرا من الديوان.

ـ الهاشميّات؛ يمدح الربيعي في هذا القسم أصحاب الحسين (ع) مثل مسلم بن عقيل(ع) وأبي الفضل العباس (ع) وعلي الأكبر (ع) والقاسم بن حسن (ع)، فهذا مطلع قصيدة العباس (ع):

لم يَحلُ في ناظري كالدَّمعِ والأَرَقِ لأنّ فرطَ البُكا والوجدِ مِن خُلُقي
حاربتُ لـذّةَ أيـامي وبهجتِهـا لأنّ بيعةَ يومِ الطَّـفّ في عُنُقـي

(المصدر نفسه: ١٧٧)

ـ الزينبيات؛ هي ثلاث قصائد في مدح عقيلة بني هاشم وبطلة كربلاء زينب (ع) يتكلّم الشاعر فيها عن دور زينب (س) الهام في حوادث كربلاء وما بعدها كما يمدح ما عندها من الشجاعة الهاشمية. يقول الربيعي في إحداها:

هذه زينبٌ حفيدة طه أعظم الناس عن أخيها جهادا
وسمّوه بزعمهم خارجيا وهي لولا جهاده المرُّ كادا!

(المصدر نفسه: ١٩١)

ـ استنهاض الحجّة؛ قصائد في رثاء الحسين والأئمة المعصومين يخطب فيها الشاعر المهدي (عج) ويسأل منه العون كما يدعو لظهوره:

لبّيك قائمَ بيت الوحي ثائرةً لبّيك هادي البرايا، جامعَ الكَلِمِ
هذي قلوبُ مواليكم مُبايِعةً قبلَ الأكُفّ، على اسمِ اللهِ فلتقِمِ

(المصدر نفسه: ١٩٩)

ـ الرباعيات الحسينية؛ مجموعة من ١٩٩ الرباعي في رثاء الحسين (ع)؛

ـ مواعظ وحكم؛ مجموعة في الوعظ والحكمة المشوبة برثاء الحسين (ع)؛

ـ فضل العلم وأهله؛ الإشادة بالعلم والفضل وأهل الفضل؛

ـ الرباعيات؛ مجموعة من ٤٤٤ الرباعي التي جلّها في الدعاء والمناجاة وأخيرا قسم في التواريخ الذي يثبت فيه الشاعر تواريخ هامّة.

٤. الربيعي ورثاء الحسين

ينقسم شعرُ الربيعي في رثاء الحسين (ع) إلى قسمين، القصائد والرباعيات، وهو تارة يبكي على الحسين في القصيدة وتارة أخرى يبكي عليه في رباعياته التي اتّسمت بطابع الرباعي الفارسي؛ فنتطرّق إلى بيان ما في هذه المراثي من الميزات.

١.٤ القصائد

مع أنّ عدد قصائده الحسينية يبلغ **٣٢** قصيدة ولكنّ الأسلوب المهيمن على هذه القصائد أسلوب واحد يسعى البحث هنا أن يبيّنه ويميّزه. هذا ونرى قصائده الرثائية إمّا مستقلة للرثاء وإمّا مطبوعة بطابع الوعظ والحكمة والإرشاد ففي النوع الأول يسعى الشاعر أن يصف مدى مظلومية الحسين (ع) وأصحابه في كربلاء لكن في لغة فخرية حماسية توحي عزة الحسين (ع) وعدم قبوله للذلّ فلننظر كيف يصفه وأصحابه كأنّهم الأسد في معركة القتال:

شهيدُ الحقّ والخُلقُ المُعلّى ... فَدَتْكَ النفسُ من بَطلٍ شهيدِ
له أيامُه البيض شهودٌ ... ويومُ الطفِّ من بعضِ الشهودِ
عَشيّةَ أحدقَتْ فيه رجالٌ ... كما احفَّ الغضنفرُ بالأسودِ
لقد مَخض الوجودُ له فكانوا ... هم الصفوُ اللّباب من الوجودِ

(المصدر نفسه: ١٥٨)

أمّا الربيعي في النوع الثاني من قصائده الحسينية فيمزج الرثاء بالكثير من المعاني الوعظية والحكمية فغالباً يتحدّث عن عدم خلود الدنيا ويحضّ الناس على أعمال تدخلهم الجنّة لا الجحيم ويذكر أُمثولة للعمل الصالح وهو الحسين (ع) وأصحابه في الطّف الذين هم في أعلى درجات الجنة:

هم درجاتٌ عند ربّك، خيرُهم ... كرامٌ عنِ الإسلامِ في الطفِّ جاهَدوا
وذادوا عن الدين الحنيفيّ جُهدَهم ... ولكن عيون الحادثات حواسد
أقاموا ملوكاً للمعالي بكربلا ... ومن رمْلِها تُثنى إليهم وسائدُ

(المصدر نفسه: ٢٣٦)

١.١.٤ أسلوبه في القصائد

الطريف عند الربيعي أنّه أطلق لفظ «الحسينيات» على قصائده الرثائية التي قالها في الحسين (ع) وسمّي كلّ واحدٍ من قصائده «في رثاء الحسين (ع)» حبّاً له ولمجده، بعبارة أخرى أنّ عنوان كلّ واحدٍ من القصائد هو «في رثاء الحسين (ع)».

أمّا للربيعي أسلوب خاصّ في قصائده الحسينية وكما مرّ سابقاً له قصائد مختصّة لرثاء الحسين وقصائد مشوبة بأنواع الوعظ والحكمة، فيبيّن البحث أسلوبه في بدايات القصائد ونهاياتها وما هو الهيكل الرئيس للشعر.

البداية: غالباً يبدأ الربيعي قصيدته بأسلوب إنشائي يُنبي عن مَدى تحسرّه على ما حدث بكربلاء وهذا الإنشاء إما من نوع الاستفهام فمثلاً يطرح سؤالاً ويوجّهه إلى ظالمي كربلاء ويسألهم عن كيف أنّهم رضوا بهذه المظالم العظيمة وهذا دأبه في مطالعه:

أأمنتَ مكرَ الواحدِ الديّانِ ... فعصيتَه بالسرِّ والإعلانِ
وزعمت أنك طامعٌ في قربه ... لاتقبلُ الدعوى بلا برهانُ
هلّا فكرْتَ بأيّ وجهٍ في غدٍ ... تلقاه معتذراً بأيّ لسان؟

(المصدر نفسه: ١٥٤)

ويتعجّب الشاعر من كيف أنّ الذين اغتصبوا حق أهل البيت (ع) يطمعون في قربة الله ويسأل منهم بما يعتذّورن يوم الحشر وهم يقتلون الحسين (ع)؛ أو في قصيدة له أخرى يخاطب الشمس ويسأله عن هل هي مشرقة بسبب تجليّ حقائق كربلاء الناصعة في استفهام تقريري:

أشمسُ الضّحى أشرقتْ طالعَه ... فأبصرتْ أنوارُها لامعَه
أم الطفُّ بالقلبِ شاهدتَ إذ ... تجلّت حقيقتُها ناصعَه؟

(المصدر نفسه: ١٣٥)

والمعلوم معاني التعجب والتقرير والتحسّر التي تتجلّى في هذه الاستفهامات (التفتازاني، ١٤٢٨: ٢٠٤)؛ وأحياناً يسأل الشخصية المتجرّدة من نفسها ويبدأ القصيدة بمخاطبتها (الربيعي، ١٤١٩: ١٣٧):

أرأيتَ ركبَ الخِلّ كيف يساقُ أرأيتَ دمع العين كيف يـــراقُ
قالوا اصطبرْ فأجبتُهم تكليفُ ما لايســـتطاعُ لوالـــهٍ ويطـــاقُ
عن مقلتي غابوا وفغاب رُقادُها فكـــأنّهم لنـــواظري أحـــداقُ

أمّا الأسلوب الإنشائي الثاني الأكثر استعمالاً في بدايات قصائد الربيعي فهو أســـلوب الأمر الذي غالباً يسعى الشاعر من وراءه أن يرافق المخاطب أو ما يسمع كلامه مع نفسه للبكاء على شهداء كربلاء الظامئين:

حيٍّ بالحزن والدّموع السّـــجامِ كربلا واندبِ الشهيدَ الظـــامي
حلٍّ في ربعها الحلالِ ولكـــن حلّ في كلّ راحـــة في حـــرامِ
إيهِ يا قلبَه الزكيّ الـــذي مـــا ما زال للعطف موضعا والسلامِ
كيف أصبحتَ في الطُفوف محلّا للرّزايا وللخطـــوب الجســـامِ؟

(المصدر نفسه: ١٤١)

والواضح أنّ الشاعر يطلب من كربلاء أن يبكي على الشهيد الظامئ فهو الحسين (ع) وهذا الأسلوب الأمري يتكرّر أربعة مرّات أخرى وسرعان ما يتّصل بالاستفهام في البيت الرابع، الاستفهام بـــ«كيف» الذي يخرج من معناه الأصلي إلى معنى التحسّر والتعجب.

فبدايات الربيعي كلّها جذابة موحية ممهِّدة للمعاني المطويّة في القصيدة وهي استهلالات جيّدة وعناوين مجتباة تلفت نظر القارئ ويدعوه إلى أن يستمرّ قراءة القصيدة حتى النهاية.

الهيكل الشعري: يمكن الإشارة إلى ميزات هيكله الشعري فيما يلي:

الموسيقى الملائمة للرثاء:من الميزات البارزة في رثاء الربيعي هي العناية الفائقة بتناسب الموسيقى مع موضوع الرثاء؛ فهذه المسألة تتجلّى في اختيار الأوزان الثقيلة أوّلا والقـــوافي ذات الرنّة الحزينة ثانياً وتلاؤم موسيقى الألفاظ للمعاني الرثائية.

فمن أكثر البحور الشعرية استعمالاً في شعره يمكن الإشارة إلى «الكامل»، «الخفيف»، «الوافر» و«الرمل» (مرغي، ١٤١٤: ١٩٤) والعروضيون يعتبرون هذه البحور من البحور الثقيلة التي تناسب موضوعات جدّية كالمدح والرثاء (هـــوميرس، د.ت: ٨٤؛ وحيـــديان كاميار، ١٣٧٤: ٧٣).

أمّا حروف الرويِّ في قصائد الربيعي وأكثرها إمّا من الحروف اللينة المهموسة كـ«م» و«ف» وإمّا من الحروف المجهورة التي من صفاتها الانفجار والاحتكاك (كمال الدين، ۱۹۹۹: ٤۹) ولكن لكي تقلّ من هذه الحدّة تتبعها حروف وصلٍ لين، كـ«ع» و«ق» ومابعده «ه».

وهكذا الحال في الموسيقى الداخلية التي تتجلّى في تنسيق الألفاظ والصنائع البديعية (شفيعي كدكني، ۱۳۷۰: ۲۹۸ – ۲۹۹) وتختلف باختلاف مقام الشعر، فإذا يفتخر الشاعر بالإمام الحسين (ع) وما أبدى من الشجاعة والغيرة في سبيل الله فالموسيقى شديدة حماسيّة وإذا يذكر مظلوميتهم فيُثقل الموسيقى ويبكي بها:

لك فضلٌ عزّ قدراً ومُقامـا ونُجارٌ في البرايـا لايُسـامى
أتُرى قلـبي يهنيـهُ الّـروَى وحسينٌ في العَرى يقضي أواما
ونسـاءٍ تتعـادى كالقِطـا مُذْ عليها أحرقَ القومُ الخِياما

(الربيعي، ۱٤۱۹: ۱٤۳)

الجدير بالذكر أنّ الربيعي قدعارض بعض القصائد المشهورة في الأدب العربي وتتجلّى هذه المعارضة والمحاكاة طبعاً في الوزن والبحر والقافية. ومن أهمّ قصائد حاكاها الربيعي هي قصيدة «بانت سعاد» لكعب بن زهير:

بانتْ سُعادُ وقلبي اليومَ متبولُ متيّمٌ إثرَها لم يُفدَ مكبولُ

(كعب بن زهير، ۲۰۰۸: ۱۲۳)

والربيعي يقول محاكاة لقصيده كعب:

المجدُ عند حُدودِ البيضِ مكفولُ ولا يتمّ لربّ الجُبنِ مأمولُ
وإنما شرف الإنسان يرفعه وما على شرف الآباء تعويلُ

(الربيعي، ۱٤۱۹: ۱۵۰)

وتتجلّى المحاكاة في الناحية الموسيقية من حيث الوزن والقافية.أمّا القصيده الثانية التي اختارها الربيعي للمحاكاة فهي قصيدة «بردة» للبوصيري التي مطلعها:

أمن تذكّر جيرانٍ بـــذي سَـــلَم مزجْتَ دَمْعاً جرى مِن مُقلَةٍ بـــدمِ

(البوصيري، د.ت: ٩)

ونشاهد أحياناً قصائد يجمع فيها الشاعر بين الرثاء الحسيني والبشارة المهدويـــة علـــى سبيل الافتنان والإدماج:

أصوتُ جبريلَ ذا عن ثَغَرِ مبتسم مبشّراً بظهور النّـــورِ في الحـــرمِ

يدعو بنا شيعةَ الأبـــرارِ حـــيَّهلا لبيعة الحقّ عن قربٍ وعـــن أمَـــم

(الربيعي، ١٤١٩: ١٩٩)

كثرة التشابيه والإستعارات: فالشاعر يستفيد من أنواع التشابيه والإستعارات الجميلة منها بديعة ومنها تقليديّة، والقارئ يحبّ البديعة منها ويستحسن التقليدية:

وجاءت الكوفـــةُ في خيلـــها كتْباً وفي أجنادهـــا أحرفـــا

عجّلْ فإنّ الدين قد كـــوّرت ذُكاه والإسلامُ رســـمٌ عفـــا

وعادت الكعبة حـــتى اللّقـــا ترفُـــلُ في حِـــدادِها مِطرَفـــا

وتشبيه الخيول بالكتب والجنود بالأحرف تشبيه جميل، والجنود حـــروف مكتوبـــة في كتب الخيل وهذا التشبيه ينبي عن مدى كثرة الجيوش بحيث كانت كالحروف. أمّا التشبيه الثاني فهو تشبيه شرائع دين الإسلام برسوم ديار قد عَفَتْ بسبب ما أبدعته حكومة بـــني أمية من الانحراف في الدّين فهذا كلّه من تشابيه مبدعة حديثة (المصدر نفسه: ١٣٤):

هذي أميةُ لاقواعـــدَ يعـــرُبٍ ترعى ولاتخشى أُمَيٌّ مَعادُهـــا

وكثيراً ما نراه يبدأ عدّة أبيات متتالية بـــ«كأنّ» منبياً من البداية أنّ كل بيت يحتـــوي على تشبيه جميل:

كأنّ لُهم دمَ الأعداء كـــأسٌ ومن هاماتهم طافَ الحُبـــابُ

كأنّ رؤوسَهم عشّاقُ سُـــمرٍ تمايلُ إذ تميسُ بهـــا الِحـــرابُ

كأنّ عليهمُ للخيـــلِ وِتـــراً غداة الرّوع إذ جدّ الضـــرابُ

(المصدر نفسه: ١٦١)

وأحياناً يأتي بتشابيه توحي بوضوحٍ تشبيهات معروفة في الأدب العربيّ مثل:

ألفى نفوساً أينعَـــتْ ورؤوسُـــها قد أحصَدَتْ فحبا الحسامُ حصادَها

(المصدر نفسه: ١٣٣)

وتشبيهُ النفوس بثمارٍ يانعة (وأيضا الرؤوس بحصاد) وحذف الثمار والإيتاء بما يـــلازم المشبه به وهو «أينعت» على سبيل الاستعارة المكنيّة ليس تشبيهاً واستعارةً حديثة إنما هـــو من صنع «الحجاج بن يوسف الثقفي» في خطبته المشهورة بمسجد الكوفة، والتشبيه التالي بالنسبة للإمام الحسين (ع) والشاعر يصف الرؤوس المرفوعة على الرماح أمام عيون زينب عقيلة العرب (ع):

ورؤوسُ أسرتها تضيء أمامها إنّ الكواكب شأنها الإشراق

ما بينها رأس الحسين كأنّـــه قمرٌ ولكن ما اعتـــراه محـــاقُ

(المصدر نفسه: ١٣٨)

كثرة المقابلة: مع أنّ المقابلة هي من أنواع الصنائع البديعية المعنويـــة (الهـــاشمي، **١٤٢٥: ٢٩٩**) ولكنّها حقيقة نوع من البيان أو طرق إيفاد المعاني المختلفة، مهما يكن من أمر فإنّهـــا من أهمّ ما يعتمد عليه الربيعي في تبيان موضوعاته الشعرية، فالشاعر دائماً يوازن بين خـــيرٍ وربح يحصل عليهما الحسين (ع) ومن اتّبعه وشرٍّ وخسران بقيا ليزيد ومن ذهب مذهبه:

هذا حسينٌ في الجنان منعَّمـــا هذا يزيدٌ في الجحيمِ يُعـــذّبُ

النّبل في جَنب الحسينِ بأســـره لكن على أعدائِـــه متجنّـــبُ

تزجي كتائبَ بغيّهم وجنودهم وعلى الهُدى تلك الجنود تكتّبُ

(المصدر نفسه: ١٦٤)

وهذا الأسلوب أخذه من *القرآن* حيث كثيرا نراه يقارن بين الفئتين في أشياء متّضـــادة تأتي ببعضها في مقابل البعض الآخر:

«فَأَمَّامَنْ أعطى، واتّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيسِّرُهُ لِلْيسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل: ٥ – ١٠)؛ فهذا أسلوب قرآني تنبّـــه إليـــه الربيعي واستفاد منه ما استفاد.

النهاية: مثلما رأينا عند بدايات الربيعي من ابتداء القصائد بأسلوب إنشائي، فهـــو في

نهاياته أيضاً يميل إلى أساليب الإنشاء، كالدّعاء والتّمني وأنواع الطلب والاستفهام، ولكنّ الأمر يختلف في أنّ الربيعي في البدايات يتحسّر ويتعجّب ولكنّ في النهايات يدعو لظهور الحجة (عج) ويستشفعه وآبائه المعصومين (ع) ويرجو أن يغفره الله أحياناً ويلعن بني أميّة الغاصبين ويؤاخذهم بما جنوا أحياناً أخرى:

وبالحَسَن العسكريّ الزكيّ وبالحجّةِ الخَلَفِ القائمِ
أجْبْنيَ أعْفُ عني أغثني أفضْ على العبد من فيضك الدائم

(الربيعي، ١٤١٩: ١٥٠)

أو في قصيدة أخرى يبيّن قصده من هذه المراثي ويقول إنّه يقتفي كعب بن زهير في المدح لأنّ قصيدته قبلت من جانب النّبي فيرجو الربيعي أن تقبَلَ قصائده:

تفوّلا بقبولٍ عمّها وعسى أن كلّ ما أشبه المقبولَ مقبولُ
ولايزال عليكم سادتي ولكم من المهيمنِ تسليمٌ وتبجيلُ

(المصدر نفسه: ١٥٤)

أمّا في بني أميّة فيقول مثلاً وهو يصف أسرى آل الرسول (ع) في الطريق إلى الشام:

أتُحرمُ في المسير لها مقيلا وتُحرم في السّرى طيب الهَجودِ؟
لقد بؤتم بها عاراً وناراً لهذي الدار أو دار الخلودِ!

(المصدر نفسه: ١٥٨)

الجدير بالذكر مماثلة طريفة بين بعض أبيات الربيعي مع كبار شعراء رثاء الحسين (ع) كالعلّامة بحر العلوم، فلبحرالعلوم أسلوب يبدأ أبياته بعبارة التكبير«الله أكبر»:

اللهُ أكبرُ ماذا الحادثُ الجلَلُ لقد تزلزل سهلُ الأرضِ والجبلُ

(بحر العلوم، ١٣٧٦: ٥٩)

والربيعي أيضاً استفاد من هذه العبارة عدة مرّات منها:

الله أكبرُ خيل الشرك قد طُحِنت صدر الحسين وفيه الوحيُ قد طُحنا

(الربيعي، ١٤١٩: ١٤٨)

والقصيدة عند الربيعي ذات أركان أساسية وهو دائما يراعي هذه الأركان ويسعى لو يظهر أسلوبه الأدبي الخاص فيها، فبداياته الإستهلالية تحتوي على أساليب إنشائية مثل الاستفهام وخاصة الإنكاريّ منها وهيكل قصائده تنطوي على العديد من التشبيهات والإستعارات الجديدة أو التقليدية الممزوجة بنوع من الحداثة كما يستفيد من أسلوب المقابلة القرآنية. هذا ويسعى الربيعي في نهاياته أن يؤكد على الجانب الإنشائي من الإساليب مرة أخرى كي يسجّل ما قاله في ذهن المخاطب.

٢.٤ الرباعيات الحسينية

أمّا رباعيات الربيعي الرثائية فتُحتسَب من أجمل شعره، فالرباعي هو فن شعري يختلف في نشأته وتسميته وتطوّره النقاد والأدباء والبعض يذهب إلى أنّه فنٌ اخترعه الفرس في القرن الرابع حيث أنشد الرودكي السمرقندي بصفته «أب الشعر الفارسي» أبياتاً في هذا الفن (قيس رازي، ١٣٦٠: ١١٢-١١٣) والبعض الآخر ادّعوا أنّ هذا الفنّ كان موجوداً منذ قرنين قبل الرودكي في زمن «يعقوب الليث» الأمير الصفاري بسيستان (دولتشاهي نقلاً عن شميسا، ١٣٦٣: ٢٤)كما يرى البعض أنّه كان نوعاً من الشعر الشعبي اخترعه الصوفيون الفرس بالخانقاهات (المصدر نفسه) فأخذه الشعراء الفرس عنهم وعرضه على البحور الشعرية فألبسه لباسه الحاضر (مير افضلي، ١٣٧٦: ١٨)، مهما يكن من أمر فإنّه فنّ فارسي أخذه العرب من الفرس (موسى باشا، د.ت: ٩١٠)، فهذا الفنّ له أنواع، الكامل الذي تكون شطوره الأبعة على روي واحد والأعرج الذي يختلف روي ثالث الشطور عن الأخرى وهو يناسب لبيان أفكار عابرة فلسفية لطيفة محدودة (البكار، ٢٠٠١: ٨٠) والفكرة الرئيسة تنطوي في الشطر الأخير، والطريف هو يضاهي نوعا من الشعر الحرّ الذي شاع في زمننا الحاضر باسم «الهايكو» اليابانية.

أمّا الربيعي فأخذ هذا الفنّ للرثاء ولبيان الأفكار المحدودة التي تنشعب من روحه الميّالة إلى فضائل أهل البيت (ع) فلعلّ عمله هذا فيه نوع من التجديد والبدعة الجميلة:

من ذا يهنّى سيد الشهداء بفعال شبه أبيه في الأعداء

ظهر الوصيّ بشخصِه متمثّلا ما أشـــبه الأبنـــاءَ بالآبـــاء

(المصدر نفسه: ٢١٥)

والربيعي يتعرّف على ظرائف الرباعي ومثلا يمدح علياً الأكبر (ع) في أنّـــه شـــبيه في هيبته وخصاله بجّده على (ع) ويختم الشعر بـــ«ماأشبه الأبناء بالآباء» ليتمّ الرباعية بالفكرة الرئيسة المطوية في الشطر الرابع؛ أو يقول:

سيد المرتضى بناءُ الشـــريعَه وحسينٌ باني كيانِ الشـــيعَه
بشقيقين في ذُرى الخُلدِ طارا بجناحين والأكـــفّ قطيعَـــه

(المصدر نفسه)

إذا دقّقنا في رباعيّات الربيعي الحسينية التي يبلغ عددها ١٩٩ رباعيّا فيمكن تقســـيمها إلى قسمين هامّين هما رباعيّات في رثاء الحسين (ع) ورباعيّات في بيان عزّة الحسين (ع).

١.٢.٤ الرباعيات في رثاء الحسين (ع)

الأسلوب الذي يتّبعه الربيعي في رباعياته الرثائية هو نفس الأسلوب التقابلي الذي يتّبعه في قصائده ومع أنّ الرباعي مجاله ضيّق ولكنّ الربيعي باهرٌ في بيان المعني في هذا المجال حيـــث يضيف إلى أسلوبه التقابلي نوعاً من أنواع البديع وهو مرّة يقابل بين الحسين (ع) ويحيى بن زيد في ما أصيبا من المصائب وينتج أنّ المصائب لاتقاس ويشـــكل الجنـــاس بـــين المـــُشاكل والمـــَشاكل:

ما بينَ يحيى والحسين تشاكُلُ فتظُنّ يحيى للحسينِ مُشـــاكلا
كلّا، فمن ينظرْ حديثهما يجد أنّ الحسينَ أجلّ منه مَشاكِلا!

(المصدر نفسه: ٢١٢)

ونظراً إلى ما مرّ من رغبة الربيعي إلى المقابلة الممزوجة بالجناس فنضرب مثالا آخر:

أتظنُّ أنْ قَتَل اللحســـينُ يزيـــدُ كلّا، لعمـــرك والألـــهُ شـــهيدُ
هـــذا يزيـــدُ بعـــارِه وبنـــارِه يَخزى، وذا شرفُ الحسين يزيدُ!

(المصدر نفسه: ٢٢٥)

ومرّةً يقارن بين شهداء «بدر» وشهداء «كربلاء» على سبيل الجمع والتفريق وينتج أنّ مصائب شهداء كربلاء أشدّ وأضرّ:

شهداء بدرٍ والطفوفِ كلاهما لهمُ لدى اللهِ المقـــام الأرفـــع
واختصّ فتية كربلاءَ بمصائبٍ وأضرّها العطشُ الذي لايُنقَعُ

(المصدر نفسه: ٢١٥)

كما يقارن بينَ جسدي الحسين وشبله علي الأكبر (ع) في رباعيّة تحرق القلوب حيث يقول إنّ جسديهما لايكمن حملهما بوسيلة واحدة:

جسدان يومَ الطفّ ما حُملا سِوي بوسيلةٍ، وهما الحســينُ وشِــبلُه
فالسِّبطُ يُحمَلُ في البواري شــلوُهُ وســليلُه بــرِدا أبيــه حَملُــه

(المصدر نفسه: ٢١٥)

ولايكتفي الربيعي بالمقارنة بين الأشخاص والأجساد ويأتي بمقابلات طريفــة أخــرى فمثلاً يقارن بين صيحة إبليس في أحد وصوت جبريلَ في كربلاء حيث يقول:

خُلِعت قلوبُ المسلمين وقد دعا إبليسُ أن قُتِــلَ الــنبيّ محمــدُ
واليومَ فليقضوا أسى لمــــّا دعا جبريلُ قد قتل الحسينُ السيدُ!!

(المصدر نفسه: ٢٢١)

أما الإنشاء وخاصة الاستفهام فمايزال يستفيد منه الربيعي لبيان تحسّره:

لمن رأسٌ يشعُّ على السـنانِ بنصِّ الوحي يَصْدَعُ عن بيانِ؟
فتســمعُه نســاه فللرزّايــا وللبُشرى صراعٌ في الجنــانِ

(المصدر نفسه)

٢.٢.٤ الرباعيات في عزّة الحسين (ع)

لايبكي الربيعي في رباعيّاته التي قالتها في العزة الحسيني إنما يفتخر ويباهي بما عنده وعنــد أصحابه من الشجاعة والمروءة والعزّة التي تزلزل ظهر الظلم والجور:

كلُّ عضبٍ في الضربِ يلفي كهاما حيث قرعُ الحـــدودِ قـــد فلّلتـــه
غـــيرَ أنّ الحســـينَ زاد مضـــاءً فكـــأنّ الخطـــوبَ قـــد صـــقلته

(المصدر نفسه: ٢١٧)

والحسين عضو من جدّه الرسول وعنده القوّة الإلهية:

لو شاءَ أن يأتي الحسينُ بضـــربةٍ تقضي على الطاغي يزيدَ وحشدِه
أسمعتَ ضربةَ جـــدّه في وقتـــها أودتْ بإبليسَ اللعـــينِ وجُنـــدَه

(المصدر نفسه)

ويقول عن قدرة عزيمة الحسين (ع):

كلُّ خطبٍ لاقى الحسينُ كفيلُ أن يعودَ الحسينُ منه صـــريعا
فهو لو كان مثلَنـــا عزمـــاتٍ فلماذا هانت عليـــه جميعـــا!

إذا تأمّلنا رباعياته التي قالها في العزّة الحسينية نرى أنّ الربيعي يُطـــوي المعـــني الـــرئيس والمضموم الأهمّ في الشطر الأخير مما يدلّ على مدى تعرّف الربيعي بمميزات الرباعي الفارسي.

٥. النتيجة

يتجلّى رثاءُ الحسين (ع) في شعر الربيعي عبرَ قصائده التقليدية ورباعيّاته البارعة، فهـــو في القصائد يسعى لو يبدأها ببدايات جميلة تمّهد الطريقَ للدّخول إلى موضوع القصيدة كمـــا يستفيد من أسلوب المقابلة والمقارنة في القصيدة، الأسلوب الذي أخذه من *القرآن الحكيم* وله تشابيه واستعارات بديعة وأحياناً نرى الربيعي يميل إلى محاكاة قصائد كبـــار الشـــعراء ككعب بن زهير والبوصيري لكنّ هذه المحاكاة لاتتجاوز البحر والقافية إلى المعاني. هـــذا ويراعي الربيعي موسيقى شعره ويبذل جهدَه في تلاؤم موسيقى الألفـــاظ مـــع المعـــاني، والبحور مع الموضوع والقافية مع الفضاء الموسيقى.

أمّا رباعياته فهي نموذج للرباعيّات البديعة في اللغة العربية والربيعي كـــان يفطـــن إلى ظرائف هذا الفنّ الشعري ودائماً يسعى لويطوي المعني الرئيس في الشطر الأخـــير، هـــذا

ورباعيّاته تنقسمُ إلى قسمين قسمٌ يتناول فيه الشاعر الرثاء الحسيني في أسلوب تقابلي ممزوج بنوع من أنواع البديع مثل الجناس والجمع والتفريق وقسم يتكلّم الشاعر فيه عن العزّة الحسينية وإباءه في أسلوب جميل بارع.

المصادر

موسى باشا، عمر (١٣٨٨ هـ.ق). «الرباعيات أو الدوبيتيات»، *مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق*، المجلد ٤٣، الرقم ١١٤.

بحر العلوم، سيد محمد مهدي (١٣٧٦ ش). *شرح مراثي سيد بحرالعلوم*، ترجمة شيخ رحمة الله كرماني، تحقيق: حسين درگاهي، تهران: اسوه.

البكار، يوسف حسين (٢٠٠١ م). *الترجمة الأدبية*، الإشكاليات والمزالق، بيروت: المؤسسة العربية للداراسات والنشر.

البوصيري، (د.ت). *البردة*، بشرح الشيخ الإمام الباجوري، القاهرة: مكتبة الآداب.

التفتازاني، سعدالدين، (١٤٢٨ هـ.ق). *شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني*، قم: إسماعيليان.

الربيعي، عبدالعظيم (١٣٧٨ هـ.ق). *سياسة الحسين*، تهران: الرشدية.

الربيعي، عبدالعظيم (١٣٩٠ هـ.ق). *ألفية الربيعي في الصرف والنحو*، مكتبة النجف.

الربيعي، عبدالعظيم (١٣٩٣ هـ.ق). *الفرقة الوسطى*، قم: المكتبة الحيدرية.

الربيعي، عبدالعظيم (١٤١٩ هـ.ق). *ديوان الربيعي في مدائح أهل البيت ومراثيهم*، قم: أسرة الناظم.

الربيعي، عبدالعظيم (١٤٢٠ هـ.ق). *وفاة الرضا (ع)*، قم: المكتبة الحيدرية.

شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٧٠ ش). *موسيقي شعر*، تهران: نگاه.

شمس قيس رازي (١٣٦٠ ش). *المعجم في معايير أشعار العجم*، تصحيح محمد قزويني، ومقابلة مجدد مدرس رضوي، تهران: زوّار.

شميسا، سيروس (١٣٦٣ ش). *سير رباعي در شعر فارسي*، تهران: آشتياني.

كعب بن زهير (٢٠٠٨ م). *ديوان كعب بن زهير*، بيروت: المكتبة العصرية.

كمال الدين، حازم، علي (١٩٩٩ م). *دراسة في علم الأصوات*، القاهرة: مكتبة الآداب.

مرغي، جاسم عثمان (١٩٩٧ م). *الأدب العربي المعاصر في إيران*، بيروت: دارالعلم للملايين.

مير افضلي، سيد علي (١٣٧٦ ش). «پارسي و رباعي»، *مجله شعر*، العدد ٢١.

وحيديان كاميار، تقي (١٣٧٤ ش). *وزن و قافيه شعر فارسي*، تهران: مركز نشر دانشگاهي.
الهاشمي، أحمد (١٤٢٥ هـ.ق). *جواهر البلاغة*، قم: منشورات حوزه علميه.
هوميرس (د.ت). *الإلياذة*، ترجمة: سليمان البستاني، القاهرة: لمّات عربية للترجمة والنشر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی